مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

أثر العامية المصرية في تجرؤ العوام والمهمشين على فهم كتاب الله

عاصم طلعت محمد
باحث مصري

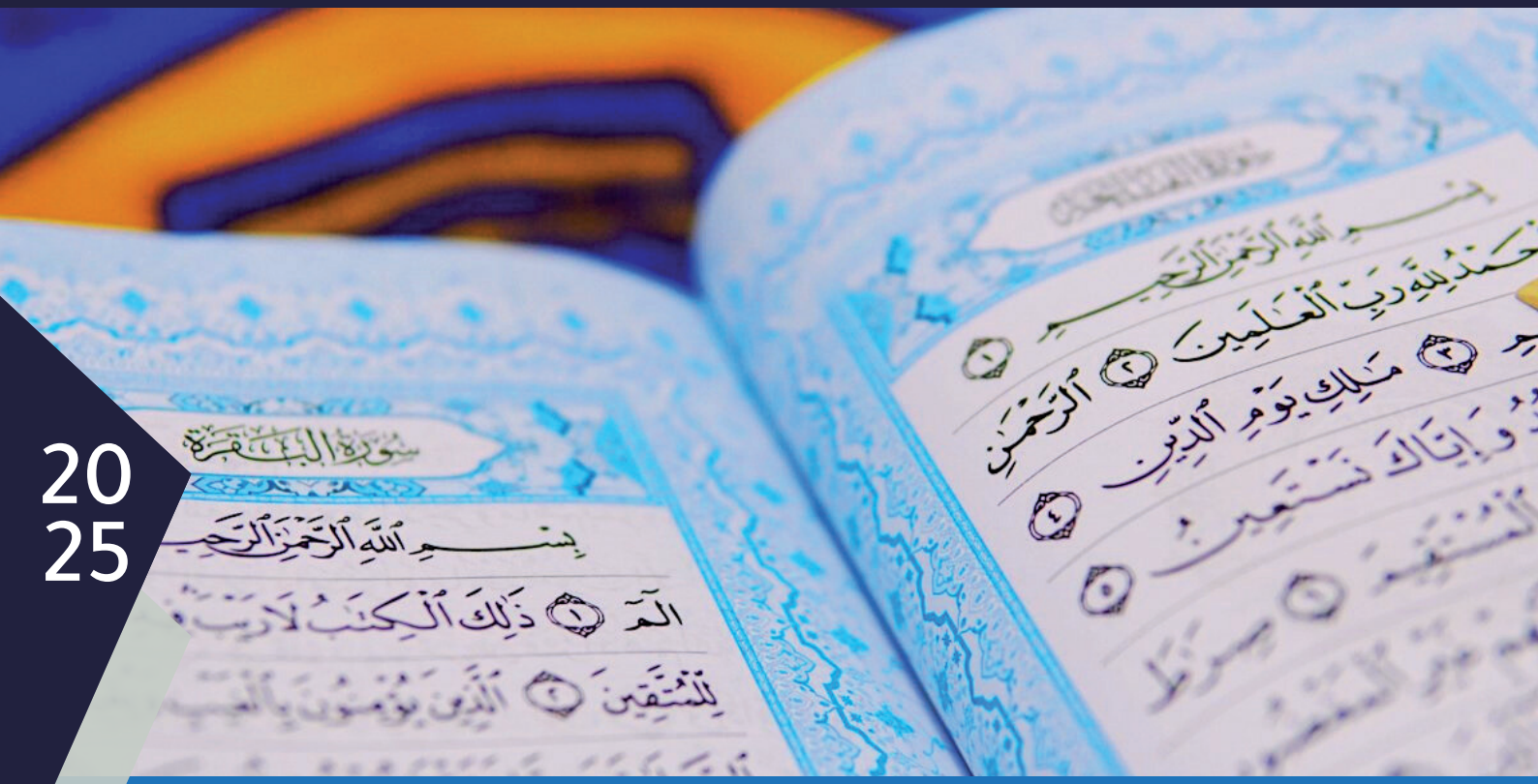

2025

- **بحث محكم**
- **قسم الدراسات الدينية**
- 2025-06-05

جميع الحقوق محفوظة © 2025

أثر العامية المصرية في تجرؤ العوام والمهمشين على فهم كتاب الله

ملخص البحث:

تحاول الدراسة فض النقاب عن إشكالية توافق النص القرآني مع ثقافات الأمم والبلدان التي نالتها الفتوح الإسلامية، من خلال رصد قدرة العامية المصرية على تجرؤ العوام والمهمشين على فهم كتاب الله، وقد اعتمدت الدراسة على حلقات الشعراوي التفسيرية نموذجا تطبيقيا؛ للتدليل على النتائج المتوصَل إليه بالشاهد والبرهان؛ هذا كان دافعا لاتخاذ المنهج التحليلي سبيلا بحثيا لرصد: «أثر العامية المصرية في تجرؤ العوام والمهمشين على فهم كتاب الله»، ساعيا لأن تكون هذه الدراسة إحدى المحاولات الجادة الراصدة لتطور درس التفسير في الراهن، وإحدى المحاولات الطارقة للون من ألوان الإعجاز القرآني لم يطرقه الكثيرون من الباحثين والدراسين، والممثل في توافقية النص المبارك مع الظرفيات المتلاحقة إلى أن يرث الأرض ومن عليها. وعليه جاءت الدراسة مقسمة على ثلاثة مباحث مسبوقة بمقدمة ومنتهية بخاتمة متضمنة لبعض النتائج المتوصل إليها، ومنها:

«أسهمت العامية المصرية – في الراهن - في تجرؤ العوام على فهم كتاب الله من خلال الحلقات التفسيرية للشيخ الشعراوي الذي انحاز إلى ثقافة بيئته، بغية الكشف عن الفيوض الرحمانية بلهجة عامية لكتاب عربي مبين».

المقدمة:

لازال التنقيب في الإعجاز القرآني موردا لا ينضب عطاؤه، رغم تتابع الأحقاب واعتمال الدهر؛ معطيا درسا لأصحاب العقول الغافلة برهاناً على أن القرآن الكريم منزلا من لدن عليم خبير، وكان من أبرز روافد ما نبّه إليه العقل وانحاز إليه القلب – في الراهن – إعادة إحياء ظلال قدرة القرآن على التوافق مع الثقافات المختلفة المعبرة عن عصرها المعيش؛ لاسيما وأن القرآن نصه ثابت وثقافة متداوليه في حالة حراك متلاحق.

وقد برهنت المرجعية التاريخية على أن نزول القرآن الكريم على قلب نبيه محمد – صلى الله عليه وسلم – كان محفوفاً بحزمة من ألوان الإعجاز منه ما كان مختصًّا بوقتٍ ومنها ما تحدى المتلاحقات الظرفية بتغيراتها الثقافية وتراكيبها الاجتماعية، ولما كان نزول القرآن متعاطيا مع ثقافة قوم انفردت بعادات، تقاليد، ومتبنيات فكرية خاصة بهم، مبرزًا قدرة على التغلغل والانصهار الثقافي حتى باتا نسيجاً ثقافيًّا واحدًا مطبوعا بالإسلامي، ولما كانت تطورات العصر تتقاطع طرديا مع حدوث تغيّر في الوظائف والأدوار والقيم والأعراف وأنماط العلاقات السائدة في المجتمع[1]؛ لزم ذلك على مفسر القرآن الكريم أن يكون محملا بطاقة ثقافية قادرة على التوفيق بين مقاصد النص القرآني والثقافة الآنية لمريديه، وقد دلل على ذلك قدرة العامية المصرية – في الراهن – على تجرؤ العوام لفهم كتاب الله من خلال الحلقات التفسيرية للشيخ الشعراوي الذي انحاز إلى ثقافة بيئته؛ بغية الكشف عن الفيوض الرحمانية بلهجة عامية لكتاب عربي مبين، وبمنهجية يستوعبها العامي قليل الثقافة الكتابية الفصيحة.

وعلى هذا، فإن التنقيب في آلية التوفيق الثقافي بين النص القرآني وثقافات الأمم التي نالها الفتح الإسلامي بات أمرًا ضروريا تفرضه مقتضيات البحث والتنقيب. لذا كان اختياري لهذا الموضوع المعنون بـــ: «أثر العامية المصرية في تجرؤ العوام والمهمشين على فهم كتاب الله»؛ ساعيا لأن تكون هذه الدراسة كاشفة لأثر العامية المصرية في فهم مقاصد النص القرآني المبارك في العصر الراهن، متخذًا من المنهج التحليلي وسيلة بحثية لفض إشكالية التوفيق بين ثقافة العامية المصرية وثقافة النص القرآني الفصيحة، وقد خرجت الدراسة على مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة، على النحو التالي:

المقدمة: وضمنها الباحث أهمية الدراسة والمنهج المتبع فيها.

أولا: الجمع بين الفصحى والعامية في درس الشعراوي التفسيري.

ثانيا: الاستعانة بالطرفة في درس الشعراوي التفسيري.

ثالثا: الاستعانة بالرقائق والحكايات والروايات في درس الشعراوي التفسيري.

خاتمة: ضمنتها أهم نتائج البحث.

1- إبراهيم بن محمد آل عبد الله، وعبد الله بن حمد الدليمي، علم الاجتماع للصف الثالث الثانوي، (المملكة العربية السعودية: قسم العلوم الشرعية والعربية (بنين))، 1430- 1431هـ/ 2009م – 2010م، 91

أولا- الجمع بين الفصحى والعامية في درس الشعراوي التفسيري:

كان لحاسة الشعراوي اللغوية أثر في تفسير القرآن وفق ملابسات روح العصر المعيشة؛ متخذًا من الممارسات الثقافية لمكونه البيئي سبيلا لنقل مقاصد النص القرآني إلى العوام والمهمشين من خلال قدرته على التوفيق بين الفصحى والعامية، ولما كانت اللغة ظاهرة اجتماعية، فهي عرضة للتطور في مختلف عناصرها: أصواتها، وتراكيبها، ودلالاتها، وإن تطورها هذا يتوافق مع اتجاهات عامة رئيسة؛ وذلك لأن اللغة ليست جامدة بحال من الأحوال؛ قال عبد القاهر الجرجاني (471هـ): «وجب أن يُعلم أن مدلول اللفظ ليس هو وجود المعنى أو عدمه، ولكن الحكم بوجود المعنى أو عدمه».[2]

فالألفاظ دالة على المعاني بلا شك، ولكن الحكم القطعي بوجود المعاني التي تدل عليها الألفاظ هو الأمر المبحوث عنه، فاللفظ في السياق يعطي دلالة إلى جانب دلالته الأساسية، وهو المعنى التصوري، فيكون زائدًا على المعنى الأساسي، فإن «كل كلمة، أيًا كانت، توقظ دائمًا في الذهن صورة ما، بهيجة أو حزينة، رضية أو كريهة، كبيرة أو صغيرة، تفعل ذلك مستقلة عن المعنى الذي تعبر عنه»[3]، وكان تفسير الشعراوي الشفاهي خير ترجمان لانعكاس التطور اللغوي والدلالي في القرن العشرين، حيث كانت تلقى باللقاء المباشر مع الجمهور، فحلت دروسه مرآة حقيقية كاشفة عن الاستخدام اللغوي المتداول في المكون البيئي المصري في الراهن، من حيث استخدام ألفاظ وعبارات شاعت في الممارسة العامية، والتي قد تختلف عن دلالتها في الخطاب الفصيح؛ الأمر الذي دعا إلى البحث في هذه الكلمات والعبارات ومعرفة دلالتها الآنية، بغية بيان أثرها على العملية التفسيرية، والسعي صوب تلمس قدرة المفسر على التوفيق بين مقاصد النص المبارك وثقافة العوام؛ وهذا ما يمكن بيانه من خلال المحاور البحثية التالية:

1- بعض التراكيب العامّية عند الشيخ وأصلها الفصيح:

حاول الشعراوي بيان مقاصد النص القرآني وفق الثقافة المتداولة لمكونه الثقافي منحازًا إلى التوظيف العامي، رغبة في الوصول بتفسيراته إلى ألباب وأفئدة السواد الأعظم من مريديه، مراعيا عدم الإخلال بالضوابط والأحكام المنظمة لعملية التفسير القرآني، الأمر الذي دفعه إلى الجمع بين العامية والفصحي وفق الممارسة اللغوية لمكونه الأيكولوجي محل دروسه التفسيرية؛ ففي معرض تفسيره لقوله تعالى: (اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (2)) [الرعد].

2- عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، دلائل الإعجاز، (القاهرة: مطبعة المدني)، 1984م، 234

3- كمال بشر، علم اللغة الاجتماعي، (القاهرة: دار غريب)، 1995م، 162

أوضح أنّ الحق - سبحانه - قد خلق آدم من الطين؛ والإنسان من نسل آدم الذي سَوَّاه الله، ونفخ فيه من روحه، وبعد ذلك أمر الملائكة من الحَفَظة وغيرهم؛ أنْ تسجدَ للإنسان، وهذا السجود هو إعلان الطاعة لأمر الله بخدمة الإنسان، وبيَّن أن هذه الحكاية لفتت إلى خَلْق آدم من تراب، ثم خُلط التراب بالماء؛ ليصير طينًا؛ ثم تُرِكَ قليلًا ليصير حَمَأً مَسْنوناً، ثم يجفّ الحَمأ ليصير صَلْصالا كالفخَّار، ثم ينفخ فيه الحق بالروح، فإذا ما انتهى الأجل؛ فأول ما يُنقض هو خروج الروح؛ ثم يتصلَّب الجثمان، وبعد أن يُوارَى التراب يصير الجثمان رِمّة؛ ثم يتسرَّب الماء الموجود في الجثة إلى الأرض، وتبقى العظام إلى أن تتحول هي الأخرى إلى تراب، وهكذا يتحقق نَقْضُ كل بناء؛ فما يُبني في نهاية أيِّ بناء هو ما يُنقض أولًا، وهكذا يتأكد لنا صدق الحق - سبحانه - حين نرى صدق المقابل فيما أخبرنا به - سبحانه - عن كيفية الخلق.[4]

ومن خلال الخاطرة التفسيرية السالفة نجد أن الشعراوي استعان في بيان مراد الآية ببعض التراكيب العامية التي تُعرف عند العامي الريفي مثل: (تاكل خِلْطها)[5] والدالة على الامتزاج والتوافق بين مادة الإنسان ومادة الأرض، والداعية إلى أن الإنسان سواء خلق من تراب، أو طين، أو ماء؛ لم يك ذلك شاهدًا على تعارض النص القرآني المبارك كما حاول الطاعنون الطعن فيه، فالمثل الريفي – عند الشيخ- بمثابة السبيل الميسر للوصول إلى أذهان المستمعين لبيان مراد الآية المباركة.

ومن ثم يتجلى للرائي أن العبارات العامية الشفاهية التي استعان بها الشعراوي بيَّنت مراد الآية دون كللٍ منه أو مللٍ من المستمع؛ لأن كلا منهما – الشيخ والمتلقي - ألِّف هذه العبارة المُستشهد بها في بيئته الاجتماعية.

2- دلالات بعض الألفاظ العامية التي استعملها الشيخ

قد يطرأ على المصطلح اللفظي معان جديدة بفعل التوسيع أو التضييق الدلالي؛ وهذا ما قد يقود كلا من المتكلم والمخاطب إلى مفاهيم دلالية جديدة بحسب أبعاد التخييل وجوانبه الإيجابية، ودوافعه النفسية، وما ينتجه من أبعاد رمزية للألفاظ، فمن القليل أن نجد لفظة تشير إلى دلالة واحدة، فلا تخلو لفظة من إثارة دلالته، وهذا ما يمكن ربطه بالظواهر الدلالية وتنوعها في السياق كالدلالة الصوتية وما يشكله اللفظ من عملية تأكيد المعنى، من خلال عملية التناسب بينه وبين المعنى المستدعى، وكذلك في الدلالة الاجتماعية؛ إذ تنحصر بعض الألفاظ في معان متعددة. أما في الدلالة الإيجابية والهامشية، فنجد ظلال المعنى تهيمن على النص[6].

4- محمد متولي الشعراوي، الخواطر: تفسير الشعراوي، (القاهرة: مطابع أخبار اليوم)، 1997/، 7167

5 -محمد متولي الشعراوي ب، تفسير الشعراوي الشفاهي، الرعد الآية: 2 الرابط: www.youtube.com/watch?v=JB3kfPC_Kvk

6- جنان منصور كاظم الجبوري، رسالة دكتوراه، إشراف الأستاذ الدكتور: قيس إسماعيل محمود الأوسي، التطور الدلالي للألفاظ في النص القرآني (دراسة بلاغية)، (العراق: جامعة بغداد، كلية التربية)، 1426هـ، 2005مـ، 94

وقد برهنت الحلقات التفسيرية للشعراوي على ذلك؛ ففي معرض تفسيره لقوله تعالى: (وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا(2)) [النازعات].

بيَّن أنّ «النشط» مأخوذ منه كلمة أُنشوطة، وبيَّن أن لفظة «الأنشوطة» لها استعمال في الثقافة العامية: (عُأدة وشنيطة)، فالعقدة حتى تحزم الشيء لكن إن أراد الفرد أن يحل هذه العقدة؛ فعليه أنّ يعقد عقدة بشنيطة ...فكأن أرواح المؤمنين تُنشط بسهولة، وقد اتجه الشيخ إلى هذا التفسير؛ ليبيِّن أن أرواح الكافرين تنزع نزعًا وتقتلع اقتلاعًا؛ «فالملائكة حين تنـزع روح الكافر تنتزعها نزعًا وتشدها شدًا؛ لأنه حريص على الدنيا ومتشبث بها، وهذا النزع يقتضي شبه مقاومة، فلو أن الكافر عنده قدرة أو عنده شيء لنازع في مسألة الموت، لا يكون ذلك حال المؤمن الذي تخرج منه الروح بسهولة ويسر ...»[7].

والمدقق يجد اختلاف مادة الكلمتين: (الناشطات) و(شنيطة)، فالناشطات من مادة (نشط)، والشنيطة من (شنط)؛ وهذا ما حاول الشعراوي اللفت إليه في خاطرته التفسيرية، حيث إن الشنيطة بمثابة الحل السريع للعقدة، وهكذا تخرج روح المؤمن، وقد أشار أحمد عيسى أن (الشنيطة) العامية أصلها (الأنشوطة) في الفصحى وعرّف الأنشوطة بأنها العقدة التي يسهل انحلالها[8].

ومن ثم يمكن القول إن استعمال الشيخ للعبارة العامية: «عُأدة وشنيطة»، حملت في طياتها دلالة الإحكام في الربط مع سهولة حلها، ساعيا من خلال هذا التركيب في متن تفسيره إلى التوفيق بين ثقافة المتلقين العوام، وبين اللفظة القرآنية المباركة «نَشْطًا» دون الخروج عن المراد التفسيري معتمدًا في ذلك على الثقافة العامية التي تعيش إلى حد كبير في الخاطرة على نحو يحفظها في توازن أو اتزان من خلال التخلص من الذكريات، ولعل هذا راجع إلى الظروف البيئية وما اقترن بها من عادات وتقاليد لازمت هذه اللفظة مع تقلباتها عبر الأجيال والمجتمعات والثقافات؛ لأن الثقافة المحولة إلى مفاهيم في الثقافة الشفاهية الأوليّة سرعان ما تتعرض للتلاشي، إذا لم تتكرر جهرًا على مسمع من الناس[9].

فالعبارة العامية المستعملة في الخاطرة السالفة بيَّنت للمستمع مراد الآية محل الدراسة؛ لأن الشيخ فطن إلى أن الدلالة العامية عند المستمعين أقرب لبيان مراد الآية المباركة؛ لما تحمله العبارة من دلالة متفق عليها في البيئة الآنية المحيطة ب (المرسل والمستقبل)؛ وهذا ما دفع الشعراوي إلى الاعتماد على مثال من الحياة العامية يجسد تقاليد الشعوب وعاداتهم كمدخل لفهم النص القرآني بدلًا من البدء بالنص القرآني ذاته لفهم مقاصده ومراميه، لاسيما وأن العبارات العامية أكثر استخدامًا في اللحظة الآنية - الدرس التفسيري - عند المستمع العامي من اللفظة العربية الفصيحة؛ فيكون ذلك خير معين لبيان مقاصد الآية المباركة محل الدراسة.

---

7 - الشعراوي، تفسير الشعراوي الشفاهي، النازعات الآية: 2، الرابط: www.youtube.com/watch?v=m_lauwjJBmk

8- الدكتور أحمد عيسى بيك، المحكم في أصول الكلمات العامية (القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده)، 1358هـ، 130

9 - ولتر أونج، ترجمة: د.حسن البنا عز الدين، مراجعة: د. محمد عصفور، الشفاهية والكتابية، (الكويت: عالم المعرفة) رقم182، ص81

وفي معرض تفسيره لقوله تعالى: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا(29)) [الفتح].

بيَّن الشيخ المقاصد الإرشادية المنبعثة من النص القرآني ذاته، لافتا المستمعين إلى أن الشيطان يتربص بالإنسان الذي يعتبره عدوًّا له والسبب في خروجه من الجنة، فيدبر له المكايد حتى يخرجه من طاعة الله - سبحانه وتعالى- مبينًا أن الشيطان يوسوس للإنسان في أماكن العبادة، ولا يوسوس له في أماكن المعصية؛ لأن الإنسان في هذه الأماكن لا يحتاج إلى محفز للعصيان؛ مستندا في خاطرته التفسيرية على اللهجة العامية من خلال الاعتماد على بعض الألفاظ التي ساد استعمالها في الخطاب العامي (إِحِمْ، فَأَسْتُه)[10]، وبالبحث عن هاتين الكلمتين:

(إِحِمْ) تبيَّن أنها صوت للتنبيه، والتحذير، والتنحنح، يصيح به كل مَنْ يدخل المكان إعلامًا لمن فيه إن كان فيه أحد، وقد أورد البغدادي[11] التعبير العامِّي: (دَاخِلْ لا إِحِمْ ولا دستور)[12].

أمَّا (فَأَسْتُه) فأصلها: فَقَسْتُه، حوَّل العامَّة قافها همزة، وأصلها في الفصيح: فَقَسَ فلانٌ فلانًا: ردَّه أقبحَ الردِّ، وفَقَسَ الطائر بيضته: كَسَرها ليُخرِج الفرخ، وفَقَس الحيوان: قتله، وفَقَس الشيءَ: أخذه أَخْذَ انتزاع وغَضْب، وتفاقسا: جَذَبَ كلٌّ منهما الآخر بشعره[13].

وقد استعمل الشيخ الشعراوي كلمة: فقسته؛ بمعنى كشفت أمره، ولها- كما أسلفنا -أصلٌ في الفصيح.

ومن هنا، نجد أن اللفظة العامية ربما يكون لها رصيد في الاستخدام الفصيح، بَيْد أن اللهجة العامية تنظر إلى دلالتها الآنية وفق ممارساتها التداولية بين أفراد مكونها البيئي، لما اعتادوا على هذه الكلمة من استخدامات في حياتهم اليومية.

وفي معرض تفسير الشعراوي لقوله تعالى: (قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (44)) [النمل].

---

10 - الشعراوي تفسير الشعراوي الشفاهي، الفتح الآية: 29، الرابط: www.youtube.com/watch?v=TmhtqO

11 - عبد القادر بن عمر البغدادي(ت: 1093هـ)، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، (القاهرة: مكتبة الخانجي)، ط4، 1997م، 483/4

12 - أحمد أبو سعد، معجم فصيح العامية، (مصر: دار العلم للملايين)، 1990م، 31-32

13 - مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، (القاهرة: مكتبة الشوق الدولية)2008م، (فقس)

سرد لنا قصة سيدنا سليمان – عليه السلام - حينما قابل الملكة بلقيس[14]، متخذًا من الشفاهية العامية وسيلة للتواصل مع مريديه في تفسير الآية المباركة، لاسيما وأنه كان على إيمان بأن القصص القرآني لم يأتِ كباقي القصص الأدبية المتعارف عليها عند البشر، بل جاء على سياق خاص ونسق فريد؛ فلكل لقطة قصصية في النص القرآني المبارك غرض مخصوص.

والثقافة الشفاهية لا تفتقر إلى الأصالة بها ولا تكمن أصالة السرد في تأليف قصص جديدة، بل في القدرة على التفاعل مع جمهور بعينه في وقت بعينه، حيث ينبغي في كل مرة أن تقدم القصة بشكل متفرد[15]، وهذا ما نجده في القصة القرآنية التي سردها الشيخ بأسلوبه الشفاهي العامي للمستمعين، حيث حكى القصة بنمطية عامية أسهمت في تمثيل وتجسيد الأحداث القصصية في ضمير المتلقين؛ مستعينا بألفاظ تنازعت دلالتها ما بين العامي والفصيح، كلفظة: (شلحت)[16]، وبالبحث عن هذه الكلمة في الكتب العربية، وجد الباحث أن هذه اللفظة فصيحة أيضًا، على الرغم من استعمال العامَّة لها، فقد جاء في المعجم: والتَّشْليحُ: التَّعْرِيَةُ، سَوادِيَّةٌ. والمُشَلَّحُ، كمُعَظَّم مَسْلَخُ الحَمَّام[17]، بَيْد أن المتلقي لهذه الكلمة وغير المتخصص في علم الدلالة العربية يظن للوهلة الأولى أنَّ هذه اللفظة عامية ليس لها وجود في الثقافة الكتابية الفصيحة، وكان لتوظيف الشعراوي لهذه اللفظة في سياق تفسيره أثرا في إثراء العملية التفسيرية برمتها، حيث أسهمت في إكساب القصة القرآنية لقطات لم يكن لها وجود في نص القصة الأصلية، وشاركت في التوسيع الدلالي للآية القرآنية – محل التفسير – وفق ثقافة المتلقين.

ثانيا- الاستعانة بالطرفة في درس الشعراوي التفسيري:

قال ابن فارس: «إن العلم بلغة العرب واجب على كل متعلق من العلم بالقرآن والسنة، حتى لا غناء بأحد منهم عنه وذلك أن القرآن نازل بلغة العرب، ورسوله صلى الله عليه وسلم».[18]

ويقول ابن تيمة: «إن اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب؛ فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب».[19]

---

14 - الشعراوي، تفسير الشعراوي، 10792

15 - أونج، الشفاهية والكتابية، ص 85

16 - الشعراوي ب، تفسير الشعراوي الشفاهي، النمل الآية: 44، الرابط: www.youtube.com/watch?v=uL

17 - محمد بن يعقوب الفيروز آبادي مجد الدين، القاموس المحيط، (القاهرة: دار الحديث)، لطبعة: الثامنة، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م، (شلح)

18 أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، تعليق: أحمد حسن بسج، الصاحبي في فقه اللغة ومسائل وسنن العرب في كلامها، (لبنان: دار الكتب العلمية)، ط.الأولى، ص: 35

19 احمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية (ت: 728هـ)، اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، (المملكة العربية السعودية: دار أشبيليا)ط. الثانية، 1997م، 572/1

وميز عبد القاهر الجرجاني (471هـ) بين اللغة والكلام، وبيَّن أن المقصود بالكلام معاني الألفاظ، وعدّ الألفاظ رموزًا للمعاني، والفكر عنده لا تتعلق باللفظة، وإنما يتعلق بما بين المعاني من علاقات[20].

وعلى هذا الأساس، يمكن عدّ المفردات محدودة، لكن تألفها هو الذي يغيّر الإيحاءات، فينظر إلى تصديق العبارة أو تكذيبها على أن الأسلوب الفني هو الذي ينبِّه إلى المعنى، ولولا الطرائق الفنية في الكلام لنفدت المفردات[21]، والخروج بالكلمات عن وظيفتها الوضعية الحقيقية هو انزياح عن طبيعة اللغة؛ لخلق لغة جديدة مبتكرة، وهذا لا يكون إلا في النظم، وسرُّ النظم في المجاز؛ ذلك أن محاسن الكلام، معظمها إن لم نقل كله متفرعة عن صناعة المجاز، فهناك فرق بين اللغة العادية (الحياتية)، وبين اللغة الفنية، وما أسماه عبد القاهر الجرجاني (معنى المعنى) هو الذي تؤديه اللغة الفنية، وفنية اللغة تكمن في حسن النظم ودقة الصنع.[22]

فالدلالة اللفظية هي المحركة لمراد اللفظة القائمة بين المتكلم والمستمع، وللخواص الفنية للغة قدرة على إبراز المعنويات وتشخيص القضايا العقلية بقوالب تغلب عليها عناصر الحس والمشاهدة، لتلتقي الصورة بالمضمون، وتقرن المعاني بالألفاظ، بل لتتعانق اللغة والفكر متضامنين في إخراج وظيفة الأداء الفني للقول؛ وعلى هذا فالوظيفة الفنية للقول تكون في كشف المجهولات للعيان، وتشخيص المعنويات، بعرض المعقولات وإبرازها بمثال حسي، حتى يزول الخفاء ويتلاشى الإبهام[23].

ومن هنا يمكن الإشارة إلى قدرة الشيخ في نظم الألفاظ على نسق بعينه يفهمه المستمع لدروسه الدينية لإنتاج عبارات تثير ضحك المستمع، بغية إثراء العملية التفسيرية المعني بها من خلال تيسير فهم دلالات المقاصد القرآنية، وقد تعددت الأشكال والأغراض المستخدمة عند الشيخ لإثارة ضحك المستمع، لاسيما وأن خالق الروح الفكاهية في الحديث يمر بتجربة معينة أُطْلِق عليها اسم التجربة الضاحكة، وتبدأ هذه التجربة بحالة من اليقظة مصحوبة بذكاء الفرد الخالق، وبثروة إدراكية، وكل هذا يمهد لخلق حالة من التوتر عنده تدفعه إلى الإحساس العميق بالشيء المثير المحزن من ناحية، وإلى الرغبة في المرح من ناحية أخرى إذا كان كل توتر يكون مصحوبا دائما بإحساس بالتهديد، فإن الإنسان في اللحظة التي يشعر فيها بتهديد ضد الأنا، ينشأ عنده – كرد فعل لذلك – إحساس بالرغبة في الانطلاق؛ وهنا يقارن صانع النكتة بين فكرته والواقع المدرك، كما يرى الفرق الجوهري بينهما، فإذا به يدرك لتوه تعارضاً، وفي لحظة الوعي المفاجئ بهذا التعارض يصعد

20- الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ص 415-416

21- جنان منصور كاظم الجبوري، رسالة دكتوراة، إشراف الأستاذ الدكتور: قيس إسماعيل محمود الأوسي، التطور الدلالي للألفاظ في النص القرآني (بغداد: جامعة بغداد، كلية التربية/ ابن راشد) 1426هـ، 2005: ص151

22 ينظر الجرجاني، دلائل الإعجاز، 69، 74

23- الدكتور: محمد حسين على الصغير، الصورة الفنية في المثل القرآني، سلسلة دراسات: 288، (العراق: منشورات وزارة الثقافة والإعلام)، 1981-365_366

جوهر التجربة الضاحكة بصفة عامة[24]، وقد تعدد مظاهر الطرفة في تفسير الشعراوي عند تواصله مع متلقي تفسيره، على النحو التالي:

1- طرفة بالتوظيف الحركي

ففي قوله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ)[25].

أعطى الشيخ في هذه الخاطرة درساً في العقيدة مبينا إشكالية حرمانية الغناء والموسيقى، مستخدما عقله الواعي الناظر إلى أمور عصره في إطار التلاؤم والتوفيق، حيث أرجع الشعراوي حرامانية الموسيقى والغناء إلى ما كن ووقر في ضمير المزاول لها صناعة وسماعا؛ مقرًّا بأن أي شيء يثير غريزة الإنسان فهو حرام، حيث يكون الفرد نفسه هو المتحكم في غرائزه، محضا على أهمية التزام الرجل بوقاره ممثلا لذلك بحال الرجل الخارج عن هيئة الوقار معتمدا في ذلك اللهجة العامية المقترنة بعناصر التمثيل الجسدية؛ لبيان الأمر للمستمع العامي والمثقف: «آل ويسمع واحدة بتغني ويروح آعد ومسكلها الوحدة (ويشير إلى الخبط على الطبل)...»[26].

ولعل ضحك المستمعين هو خير دليل للسان حالهم على الرجل الخارج عن وقاره، وهذا ما يرسخ في نفس المتلقي صورة ساخرة لمن يخرج عن ضوابط احترام الذات من خلال تناول الشيخ الآية المباركة بالتفسير متماشيا مع روح العصر التي أحاطت به وبالمستمعين.

2- طرفة بالتوظيف الحكائي

ومن الوسائل التي نجدها عند الشيخ في خواطره التفسيرية استعانته بالحكايات والقصص سائرًا على نهج أهل الريف المصري في الخطاب العامي الشفاهي، معتمدًا على الأسلوب الغزير الذي يبين أدق تفاصيل بالحكاية المسرودة، والتي قد تكون دافعة في بعض أجزائها إلى إثارة الضحك والفكاهة؛ بغية إثراء العملية التفسيرية وفق مقتضى ثقافة متلقيه؛ ففي قوله تعالى: (يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ)[27]

يقول تعالى ذكره: يخرج من هذين البحرين اللذين مرجهما الله، وجعل بينهما برزخا اللؤلؤ والمرجان.

---

24 - الدكتورة: نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، (مصر: دار نهضة مصر)، 229

25 - لقمان الآية: 6

26 - الشعراوي، تفسير الشعراوي الشفاهي، لقمان الآية: 6، الرابط: www.youtube.com/watch?v=ZYMcpoyh_kQ

27 - الرحمن الآية: 22

اعتمد الشيخ في معرض تفسيره للآية السالفة على الاستعانة بطرفة فكاهية بطلها «حاجب محكمة» رغب في طلب خطبة أحدى الفتيات، وبسؤال ولي أمر الفتاة عن راتب «الحاجب»، أجاب بعبارة فكاهية مصحوبة بانفعالات جسدية وتلاعب صوتي من قبل الشيخ: «أنا والقاضي بناخد مائة جنية»[28] بغية التفلت من الكشف عن راتبه المتواضع، والظفر بقبول ولي أمر الفتاة بالخطبة.

والمدقق يجد أن الشيخ ساق الطرفة السالفة لبيان المراد من قول الحق: (يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ) أي: من الماء المالح والعذب؛ وكأن اللغة العربية الفصيحة في القرن العشرين عند الشيخ غير كافية لبيان مراد آي الذكر الحكيم إلا إذا كانت مقترنة بالممارسات اللغوية للحياة العامية التي يعيشها الفرد في عصره خاصة الفرد العامي الملازم للبيئة الشفاهية العامية عن البيئة الكتابية.

3- طرفة بالتوظيف اللفظي

وفي قوله تعالى: (أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)[29].

طاف الشعراوي حول لفظة (محضرين) لبيان مقصدها القرآني في الآية محل الدرس والتفسير؛ مستعينا بشواهد قرآنية للفظة محل الدرس في إطار تفسير القرآن بالقرآن في قوله تعالى: (لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (68))[30] و(لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (53))[31]، (هُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ (75))[32] مستخدما إشارة باليدين للدلالة على الإحضار والجلب؛ مستخلصا شفاهيا إلى أن كل (محضرون) دالة على الإحضار؛ أي: كل فرد لابد وأن يجلب ويحضر لمشاهدة العذاب يوم القيامة، لافتا إلى أن لفظة «محضر» مصحوبة بدلالة العقاب والإيذاء؛ معبرا عن ذلك في سياق شفهي: «ويمكن إللي وضع كلمة محضر ديه .. عُمْر المحضر يجي بخير؟! مش ممكن».[33]؛ الأمر الذي دعا إلى إثارة ضحك المتلقين لهذه العبارة التهكمية، حيث استخدم اللفظة في إطار بلاغي قائم على التورية لما لها من معنيين أحدهما دال على دلالة الإحضار والجلب، والثانية دالة على وظيفة «محضر» المحكمة الذي يعلم بموعد القضايا بين المتخاصمين قضائيا، وهذا ما يخاله الباحث أسهم بدور المحفز التذكيري لدى المستمع، لاسيما وأن الخطاب الشفاهي أقل حفظا من الكلام المكتوب في الأذهان، وفي ذلك يقول الشيخ

28 - الشعراوي، تفسير الشعراوي الشفاهي، الرحمن الآية: 22، الرابط: www.youtube.com/watch?v=DfqC9WVHmNY

29 - القصص الآية: 61

30 - مريم الآية: 68

31 -يس الآية: 53

32 - يس الآية: 75

33 - الشعراوي، تفسير الشعرواي الشفاهي، القصص الآية: 61، الرابط: www.youtube.com/watch?v=SrKWvqeFZvk

علي محفوظ: «العلم بحال من توجه إليهم الدعوة في شؤونهم واستعدادهم، وطبائع بلادهم، وأخلاقهم، وما يعبر عنه في العرف بحالهم الاجتماعية من الضروريات الواجب توافرها في الخطيب».[34]

حيث إن الخطاب العامي يؤتي ثماره على أكمل الوجوه إذا ما كان الوسط الشفاهي بين المرسل والمتلقي قائم على قواعد ثقافية وعادات واحدة، بخلاف الخطاب المكتوب الذي يراعى فيه اللغة الفصيحة المعهودة لأبناء اللغة الواحدة، رغم اختلاف اللهجة والثقافة فيما بينهم. وهذا ما جعل العملية التفسيرية – في الآية المعنية بالتفسير - سائرة على نسق لا يشوبه الاستغراب أو الاستهجان من قِبل المستمع لدروس الشيخ، حيث إن المرسل والمتلقي أبناء لهجة وثقافة واحدة.

و في معرض تفسير الشعراوي لقوله تعالى: (لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ)[35].

انتقل إلى بيان قول الحق سبحانه وتعالى: (بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ) اعتمادا على التفسير الموضوعي لآي الذكر الحكيم، وبين المراد من كلمة «طيبة» التي أرجعها إلى مراد «طيب الأشياء بدون منغص فيها» ممثلا لهذا المعنى بمثال قصصي من الحياة العامية الريفية مُجسدًا لحوار شخوصها باللهجة الريفية المصرية التي تربى فيها الشيخ، ليبين أن الإسراف في نعم الله دون حد تَؤدي بالإنسان إلى التنغيص، بيد أن الشيخ قرن مراد الآية المباركة بحكاية الإنسان المنعم الذي يتناول ألوان الطعام المختلفة بإسراف كأحد تمظهرات الترف؛ فتسببت له في تنغيص وآلام، معبرا عن ذلك المراد في إطار فكاهي شفاهي: «يؤول: هات يا ولد الفوار .. هات يا ولد بِتَاع الحموضة!»[36].

وهذه العبارة المقترنة بوسائل الأسلوب الشفاهي من نبرات وانفعالات جسدية كانت السبب في ضحك المستمعين في إطار ساخر ممن لا يقدر نعم الحق - سبحانه وتعالى - في استخدامها؛ لافتا إلى ملمح اجتماعي قائم على التوفيق بين تعاليم الدين الإسلامي وثقافة المتلقين المعاشة.

ثالثا- الرقائق والحكايات والروايات في درس الشعراوي التفسيري:

تعد العامية أحد روافد الشفاهية المنحازة إلى الإطناب في ممارساتها اللغوية، وهذا ما برر استعانة الشعراوي في دروسه التفسيرية بالحكايات، متجاوزًا دور الحاكي إلى دور القصاص الذي يتدخل في البنية الحكائية بعناصر قصصية تدعم توجهه التفسيرية من الحكاية المستشهد بها، لاسيما وأن «من الظواهر البلاغية التي تتطلب مشاركة تأويلية لبناء المعنى واستحضار عناصر خفية في التركيب «الاحتباك" و«الحذف»

34 - علي محفوظ، هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة، (دار الاعتصام)، ط9، 1399هـ 1979م، 100

35 - سبأ الآية: 15

36 - الشعراوي، تفسير الشعراوي الشفاهية، سبأ الآية:، الرباط: www.youtube.com/watch?v=XmwJQCpi00s

وهما ظاهرتان بلاغيتان فيما يتعلق بمشاركة القارئ المؤول في بناء المعنى، فأما (الاحتباك) فمن الحَبْك، وهو الشد والإحكام، وتحسين الصنعة في الثوب مع الحسن والرونق، شبهت مواضع الحذف بين الكلام»[37] بالفُرج بين الخيوط، وعبر مشاركة المؤول البليغ البصير بصوغ الكلام، يوضع المحذوف في أماكنه ليسد بذلك الخلل، ويكسب الكلام رونقًا وجمالًا.

وتطرق إلى هذه الظاهرة الزركشي في «البرهان» وسماها «الحذف المقابلي»، وهي ظاهرة يمكن النظر إليها كغيرها من الظواهر النحوية أو البلاغية من زاوية إنتاجية، فيكون تسميتها بالحذف المقابلي أدل على معناها؛ لأن منتج النص يحذف في كل جهة من جهات الخطاب جزءًا لدلالة المذكور عليه. وأما «الاحتباك»، فيتم من جهة المتلقي البليغ الذي يعيد الخفي من الأجزاء إلى الإظهار عبر التأويل، وكأنه يحبك ثوب النص، ويسد الفجوات بين الخيوط الدلالية، عبر الملء وذكر الخفي، فقال هو: «إسقاط جزء من الكلام، أو كله لدليل»[38] وهو من المجازات العقلية التي تتطلب إعادة الكلام إلى حقيقته عبر أفعال التأويل. وأما ارتباط التأويل بالمحذوف اللفظي، فيتمثل في التقدير والافتراض الذي ينجزه المؤَوِّل للوقوف على الدلالة الخفية عبر تقديرها، كما أن الحذف على المستوى الصناعي، يحقق في التصور البلاغي القديم للنص تفخيمًا وإعظامًا للمعنى[39] بسبب ذهاب التأويل كل مذهب بحثًا عن القصدية، وهو ما يزيد من لذة التأويل بسبب كد الذهن؛ إضافة إلى ما يحققه من اختصار، عبر تحصيل المعنى الكثير في ألفاظ قليلة، وما يحققه ذلك من وقع في النفس.

و قد يلجأ المتكلمون باللغة إلى الحذف لتجنب الزيادات العبثية في القول، نحو: الهلال والله؛ أي هذا الهلال والله، وتقاصر الزمان عن ذكر المحذوف، مثل حالات الإغراء والتحذير: (ناقةَ الله وسقياها) [الشمس: 13] احذروا ناقة الله والزموا سُقياها، وذكر القرطاجني: «الحذف حسن ما لم يَشْكُل به المعنى»[40].

ومن محاسنه أنه يدع النفوس المؤَوِّلة تستقصي الأحوال الدلالية المختلفة، وضرب لذلك مثلًا وهو قوله تعالى: (حتى إذا جاؤوها وفُتِحت أبوابه) [الزمر: 73]، حيث حذف الجواب، لضيق الكلام عن وصف ما ينتظرهم من الفضل والخير وما يشاهدونه؛ فالجواب لا يصف ما لا يتناهى، وما لا يحده الوصف؛ ترك إكمال المعنى لجولان المؤول في أبعاد شتى من المعنى.

---

37 - للعلامة عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، تحقيقي محمد أحمد جاد المولى، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية) 1378هـ 1958م، ج.2/ص.133. وتطرق إلى الظاهرة الزركشي في «البرهان» وسماها الحذف المقابلي، وأفرده بالتصنيف برهان الدين البقاعي.

38 - الزركشي: تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، البرهان في علوم القرآن، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع)، ط3، 1980م، ج.3/ 115

39 - الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج.3/.120

40- الزركشي، البرهان، ج.3/ 121

وما يمكن ملاحظته في أسلوب الشعراوي الشفاهي حينما استعان بالروايات والحكايات، هو الاختزال المطِّرد في بنية السرد القصصي كبنية لغوية، فيها الجمل قصيرة ومركزة، تفيض بالدلالة، حيث يسعى جاهدًا بالبحث في القاموس اللغوي العامي عن ألفاظ وعبارات تلائم الثقافة والعادات العامية عند تفسير آي الذكر الحكيم؛ حتى تتماشى وحال المستمع العامي وثقافته التي تربى فيها؛ ففي معرض تفسيره لقوله تعالى: (وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آَتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ) [التوبة: 75].

استشهد برواية فقير من الأنصار حينما جاء إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم -؛ طلبًا في غنى.[41]

والقصة أن رجلًا فقيراً من الأنصار قال لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ادع الله أن يرزقني مالًا فقال: «ويحك يا ثعلبة قليل تؤدي شُكْرَه خُيرٌ من كثير لا تطيقه» قال: ثم قال مرة أخرى فقال: «ما ترضى أن تكون مثل نبي الله؟ فوالذي نفسي بيده لو شئت أن تسيل معي الجبال ذهبًا وفضة لسالت» قال: والذي بعثك بالحق لئن دعوت الله أن يرزقني مالًا لأعطين كل ذي حق حقه؛ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «اللهم ارزقه مالًا اللهم ارزق ثعلبة مالًا»؛ قال: فاتخذ غنمًا فنمت كما ينمو الدود فأنزل الله فيه: (وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آَتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ)[42].

وهذه الحادثة التي ذكرها الشيخ في خواطره التفسيرية تثبت صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيما ذكره سالفًا «إن قليلا تؤدي شكره خير من كثير لا تُطيقه» لكن القصة السالفة تبيِّن أن الأطماع المسيطرة على الإنسان المنافق تغلق كل منافذ إدراكه.

والشاهد هنا مستمد من استعانة الشيخ الشعراوي بهذه القصة؛ لبيان صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - وتأييد الحق - سبحانه وتعالى - لدعاء نبيه، وهذا ما يضفي على المستمع عنصر ترقيق للمشاعر وللأحاسيس بما تحدثه من انفعال بين الخير والشر في نفس الإنسان، فضلًا عن ترسيخ حب حياة الآخرة على الحياة الدنيا؛ وذلك بإبراز الشيخ لعنصر إثار الآخرة على الدنيا الزائلة.

وبرجوع الباحث إلى النص المكتوب في خواطر الشيخ، وجد أن المدون لأحاديث الشيخ الشعراوي نقل نص الرواية الشفهية للشيخ الشعراوي، إلا أنه أشار هامش النص المكتوب إلى أنه سبق تخريجه سالفًا[43]، على اعتبار أن نص الشيخ الشفاهي لم يكن نصًّا للرواية السالفة بل مضمونًا لها، مدركًا أن الدروس التي يلقيها الشيخ على سامعيه لم تكن معتمدة على ملازم أو كتب للمراجعة قبل إلقاء الدرس شفاهية، وهذا ما يحول عن الدقة وعدم الغلط أو النسيان.

---

41 - الشعراوي، تفسير الشعراوي، 5347

42 - أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (ت ٣٢٧هـ) بتحقيق أسعد محمد الطيب، تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، (المملكة العربية السعودية: مكتبة نزار مصطفى الباز)، ط1، ج125/36

43 - انظر: الشعراوي، تفسير الشعراوي، (5347/9)

الشاهد:

ومن ثم فالنص الشفهي يهلهل النص الكتابي المنقول عنه؛ وذلك لما يلزم الخطاب الشفهي من عناصر التمثيل التي يتفاعل معها المتكلم حسب سياق الموقف الكلامي وحال المستمعين، والاستطراد القائم على المحاجاة التي تعد من ملازمات الخطاب الشفهي. وهذا ما يجده الباحث آلية من آليات الأسلوب الشفهي لجذب المستمعين.

وقد يلجأ المتكلم في الخطاب الشفهي إلى نقل الأحداث والمواقف على شكل قصصي وإن لم يكن لهذا الحوار محل من الواقع، بَيْد أن هذه الوسيلة حينًا تكون بهدف التواصل مع المستقبل العامي لترسيخ العبرة من الموقف.

فعند تعرض الشعراوي لقوله تعالى: (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ) [المؤمنون: 96].

استشهد بقول الحق سبحانه: (وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ) [آل عمران: 159].

وهذا ما مهد إلى استدعاء الموقف الذي حدث من رسوله الله – صلى الله عليه وسلم – يوم الفتح، يوم أن مكنه ربه من رقاب الأعداء، ووقف أمامهم يقول: يا معشر قريش، ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيرًا، أخٌ كريمُ وابن أخٍ كريمٍ، قال: «فأنتم الطلقاء».

وكذلك استشهاده بقصة فضالة الذي كان يبغض رسول الله، حتى قال قبل الفتح: والله ما أحد أبغض إليَّ من محمد، وقد زاد غيظه من رسول الله حينما رآه يدخل مكة ويُحطم الأصنام، فأراد أن يشق الصفوف إليه، وبعدها قال: «فو الله، ما وضعت يدي عليه حتى كان أحب خَلق الله إليَّ».[44]

وهذا الحديث الذي استشهد به الشيخ لبيان قيمة العفو في الإسلام وبيان أثره على فاعله، فالدين الإسلامي يدعو إلى العفو والتسامح.

الشاهد:

الخاطرة التفسيرية السالفة تبيِّن لنا دور الخطاب الشفاهي الذي ساعد الشيخ في توصيل المراد إلى المستمع باستدعاء مشاهد النصر والكبرياء للمسلمين حال دخولهم مكة، وتجسيد الصراع النفسي الداخلي والممثل في مشهد حال أهل مكة، ومشهد تحول الحال من العناد إلى التصديق من قِبل المعاندين، والكارهين لشخص الرسول - صلى الله عليه وسلم - فالصورة المجسدة المقتبسة من دخول المسلمين مكة فاتحين لها؛

44 - الشعراوي ب، تفسير الشعراوي، ص: 10145

جعل المستمع يجمل قراءات السيرة في فتح مكة وإن كانت بشكل موجز إلا أن ما توصل إليه المستمع الأمي أو قليل الثقافة الكتابية، وهو غاية ما يبغاه بواساطة الخطاب الشفهي المرسل قِبل الشيخ الشعراوي في تفسير الآية المعنية بالتفسير، فالصورة المجسمة التي رُسِمَت في ذهن المتلقي بواسطة الخطاب الشفهي العامي – المألوف لدى المتلقي – أوقع في النفس والذهن من النص المكتوب لما يقارن الخطاب الشفهي من عناصر التصوير والمشاهدة؛ فضلًا عن تفضيل الثقافة الشفهية لعناصر التصوير والمشاهدة نتاج تراكم ثقافي عبر الأزمان – نحن لسنا بصدد الإفاضة في تفاصيلها – لأنها تتغلب على عنصر التفاوت في درجات الثقافة الكتابية بين المتلقين.

ومن ثم يجدر بنا الإشارة إلى إيمان الشيخ بقيمة الخطاب الشفهي في بيان أثر الأسلوب على الموقف محل الشاهد، وإن كان فيه خروج عن التأويل المتعارف عليه للآية محل الدراسة قِبل سالف المفسرين، فالشيخ غض النظر عن ملابسات موقف الرسول - صلى الله عليه وسلم - من مشركي قريش، وأحاله إلى الأسلوب المستخدم في السياق لبيان أثره على الرسول - صلى الله عليه وسلم - في العفو عن المشركين؛ وهذا يبرز لنا مدى إيمان الشيخ بقيمة الأسلوب الشفهي في توظيفه المعيش على العملية الإقناعية المستخدمة في الخطاب بصفة عامة.

وقد تكون العلة من استعانة الشيخ الشعرواي بالحكايات والروايات ترسيخ مبدأ اجتماعي يجب أن يلتزمه أفراد الأمة الإسلامية، وأن يسيروا على دربه كما علمنا سلفنا الصالح؛ ففي معرض تفسيره لقوله تعالى: (ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (30)) [الحج].

أكد أن الله - عز وجل - أَوْلَى بهذا الانضباط؛ لأن العبادة ما هي إلا انضباط عابد لأوامر معبود وطاعة مطلقة لا تقبل المناقشة؛ لأنك لا تؤديها لذاتها وإنما انقياد لأمر الله، ففي الطواف تُقبِّل الحجر الأسود، وفي رمي الجمار ترمي حجرًا، وهذا حجر وذاك حجر، هذا ندوسه وهذا نُقبِّله فَحَجر يُقَبَّل وحَجر لا يُقَبَّل؛ لأن المسألة مسألة طاعة والتزام، هذا كله من تعظيم حرمات الله.

و قد استشهد بالإمام علي - رضي الله عنه - ليلفتنا إلى هذه المسألة؛ فيقول في التيمم: «لو أن الأمر كما نرى لكان مسح باطن القدم أَوْلَى من ظاهرها؛ لأن الأوساخ تعلق بباطن القدم أولًا».[45]

ولعل هذه الخاطرة تلزم على المتلقي الالتزام والطاعة بكل ما جاء به النص المبارك والسنة المباركة بما ثبت صحتها؛ حتى يتسنى له الفوز بالدنيا والآخرة على السواء.

45 - الشعراوي، تفسير الشعراوي، ص: 9798

الخاتمة:

خلصت الدراسة إلى عدد من النتائج؛ منها:

تجلت قدرة النص القرآني المبارك في التوافق مع الثقافات المختلفة التي نالها الفتح الإسلامي، لاسيما وأن القرآن نصه ثابت وثقافة متداوليه في حالة حراك متلاحق.

أسهمت العامية المصرية – في الراهن - في تجرؤ العوام على فهم كتاب الله من خلال الحلقات التفسيرية للشيخ الشعراوي الذي انحاز إلى ثقافة بيئته، بغية الكشف عن الفيوض الرحمانية بلهجة عامية لكتاب عربي مبين.

حاول الشعراوي بيان مقاصد النص القرآني وفق الثقافة المتداولة لمكونه الثقافي منحازا إلى التوظيف العامي، رغبة في الوصول بتفسيراته إلى ألباب وأفئدة السواد الأعظم من مريديه، مراعيا عدم الإخلال بالضوابط والأحكام المنظمة لعملية التفسير القرآني؛ الأمر الذي دفع إلى الجمع بين العامية والفصحي وفق الممارسة اللغوية لمكونه الأيكولوجي محل دروسه التفسيرية.

كان لاستعانة الشعراوي بالعبارات العامية في خواطره التفسيرية أثر في إثراء العملية التفسيرية لاسيما وأن الشيخ كان على إيمان بأن العبارات العامية تحمل دلالة متفق عليها في البيئة الآنية المحيطة بـ (المرسل والمستقبل).

لفت الشعراوي إلى أن اللفظة العربية تكون لها أثر فعال عند توظيفها في سياقها العامي على توظيفها الفصيح في المكون البيئي الذي ألف الممارسة الشفهية العامية، لما لها من قدرة على توسيع دلالتها وفق الطاقة الثقافية لكل متلقي على حدة.

اعتمد الشعراوي في بعض خواطره التفسيرية على النكتة والطرفة؛ بغية إثراء العملية التفسيرية المعني بها من خلال تيسير فهم دلالات المقاصد القرآنية، لاسيما بعض المسائل العقدية التي قد تصعب على المتلقي العامي قليل الثقافة الفصيحة.

من الوسائل التي نجدها عند الشعراوي في خواطره التفسيرية استعانته بالحكايات والقصص سائرًا على نهج أهل الريف المصري في الخطاب العامي الشفاهي، معتمدا على الأسلوب الغزير الذي يبين أدق تفاصيل بالحكاية المسرودة والتي قد تكون دافعة في بعض أجزائها إلى إثارة الضحك والفكاهة؛ بغية إثراء العملية التفسيرية وفق مقتضى ثقافة متلقيه.

يؤتي الخطاب العامي ثماره على أكمل الوجوه إذا ما كان الوسيط الشفاهي بين المرسل والمتلقي قائم على قواعد ثقافية وعادات واحدة، بخلاف الخطاب المكتوب الذي يراعى فيه اللغة الفصيحة المعهودة لأبناء اللغة الواحدة رغم اختلاف اللهجة والثقافة فيما بينهم؛ وهذا ما جعل العملية التفسيرية – في الآية المعنية بالتفسير - سائرة على نسق لا يشوبه الاستغراب أو الاستهجان من قِبل المستمع لدروس الشيخ، حيث أن المرسل والمتلقي أبناء لهجة وثقافة واحدة.

تعد العامية أحد روافد الشفاهية المنحازة إلى الإطناب في ممارساتها اللغوية؛ وهذا ما برر استعانة الشعراوي في دروسه التفسيرية بالحكايات والرقائق؛ متجاوزا دور الحاكي إلى دور القصاص الذي يتدخل في البنية الحكائية بعناصر قصصية تدعم توجهه التفسيرية من الحكاية المستشهد بها. وهذا ما يضفي على المستمع عنصر ترقيق للمشاعر وللأحاسيس بما تحدثه من انفعال بين الخير والشر في نفس الإنسان، فضلًا عن ترسيخ حب حياة الآخرة على الحياة الدنيا؛ وذلك بإبراز الشيخ لعنصر إثار الآخرة على الدنيا الزائلة.

قائمة المصادر والمراجع

- إبراهيم، نبيلة، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، (مصر: دار نهضة مصر).
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام (ت: 728هـ)، اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، (المملكة العربية السعودية: دار أشبيليا) ط. الثانية، 1997م.
- ابن زكريا، أبو الحسن أحمد بن فارس، تعليق: أحمد حسن بسج، الصاحبي في فقه اللغة ومسائل وسنن العرب في كلامها، (لبنان: دار الكتب العلمية)، ط. الأولى.
- أبو حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (ت 327هـ) بتحقيق أسعد محمد الطيب، تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، (المملكة العربية السعودية: مكتبة نزار مصطفى الباز)، ط1.
- أبو سعد، أحمد، معجم فصيح العامية، (مصر: دار العلم للملايين)، 1990م.
- أونج، ولتر، ترجمة: د. حسن البنا عز الدين، مراجعة: د. محمد عصفور، الشفاهية والكتابية، (الكويت: عالم المعرفة) رقم182
- بشر، كمال، علم اللغة الاجتماعي، (القاهرة: دار غريب)، 1995م.
- البغدادي، عبد القادر بن عمر (ت: 1093هـ)، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، (القاهرة: مكتبة الخانجي)، ط4، 1997م.
- الجبوري، جنان منصور كاظم، إشراف الأستاذ الدكتور: قيس إسماعيل محمود الأوسي، التطور الدلالي للألفاظ في النص القرآني (مجامعة بغداد، كلية التربية/ ابن راشد)، رسالة دكتوراة، 1426هـ 2005
- الجرجاني، عبد القاهر، تحقيق: محمود محمد شاكر، دلائل الإعجاز، (القاهرة: مطبعة المدني)، 1984م.
- الدليمي، إبراهيم بن محمد آل عبد الله، وعبد الله بن حمد، علم الاجتماع للصف الثالث الثانوي، (المملكة العربية السعودية: قسم العلوم الشرعية والعربية (بنين))، 1430ـ 1431هـ/ 2009م – 2010م.
- الزركشي، محمد بن عبد الله، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، البرهان في علوم القرآن، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع)، ط1980م.
- السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين، تحقيقي: محمد أحمد جاد المولى، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية) 1378هـ 1958م.
- الشعراوي ب، محمد متولي، تفسير الشعراوي الشفاهي youtube
- الشعراوي، محمد متولي، الخواطر: تفسير الشعراوي، (القاهرة: مطابع أخبار اليوم)، 1997
- الصغير، محمد حسين على، الصورة الفنية في المثل القرآني، سلسلة دراسات: 288، (العراق: منشورات وزارة الثقافة والإعلام)، 1981م.

- عيسى، أحمد، المحكم في أصول الكلمات العامية (القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده)، 1358هـ.
- مجد الدين، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، (القاهرة: دار الحديث)، لطبعة: الثامنة، 1426 هـ - 2005 م.
- مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، (القاهرة: مكتبة الشوق الدولية)2008م
- محفوظ، علي، هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة، (دار الاعتصام)، ط9، 1399هـ- 1979م.

Mominoun
MominounWithoutBorders
@ Mominoun_sm

info@mominoun.com
www.mominoun.com